الانتقاد الأدبي

أقاعدة نحوية هو أم عاطفة ؟

ليوسف البعيني

في مناظرة أدبية عنيفة تضرّمتْ نارُها بين الكاتبين الكبيرين اناتول فرانس وفرديناند روتيير حدّد اناتول — ذلك الفنّان الساخر المتهكّم — ماهيّةَ الانتقاد بهذه السطور الصاحية الجزلة فقال :

« لا يمكن أن يكون فنُّ الأدب غير عاطفي ، وكذلك نقدُهُ . . . لانَّ الفنَّ ذاته عاطفة . وكذّابة هم أولئك الناقدون من الادباء الذين يزعمون انهم قادرون على انتقاد الأدب بدون عواطفهم . والحقيقة العامة عندي هي انهُ ليس أسوأ من ناقد يتّخذُ مقاييسَ الألفاظ والاوزان لنقد قطعة فنية أفرغ في روعها صاحبها خلاصة روحه ، لانّ المشاكل الخفية في الأدب وفي نقده لا يحلّها علمُ الصرف والنحو ، بل تحوجها تلك العاطفة العلوية التي لا تقيدها فواصلُ وحدود ، ولا تثنيها أبعادٌ وتخوم »

وتحامل مرّة نفرٌ من الادعياء المغرورين على الشاعر العبقري الساحر توماس هاردي ، فانتصرَ لهُ الناقدُ المبدع — جون رسكن — وكتب في ذلك مقالاً ضافي الذيول لا ازالُ اذكرُ منهُ هذه الجمل :

« إنَّ غاية النقد الحيّ الرفيع لا تحصر في حبك الجمل الصحيحة وترديد الالفاظ القاموسية الخالية من الخطأ النحوي ، انما تحصر في البحث عن كل جميل ومؤثر في الحياة ، وعن كلّ حبٍّ والناس في اسرارها واحلامها »

وقال سانت بوف : « الناقدُ النابغ هو ذلك الذي يزيد في ثروة العالم الفكرية ، ويأخذ بها خطوةً في نواحي التقدّم والفلاح ، ثم يكتشف حقيقةً اخلاقية رائعة ، ويخترق إلى عاطفة كامنة فيصبُّ كلُّ ذلك في قالبٍ شفّافٍ عميق في تفكيره ، جميل في اسلوبه »

وقال بودلير : « إنَّ أروعَ نقدٍ هو النقدُ الشعريُّ البهيج . لا ذلك النقد البارد الذي يسلك علم الجبر في حلّ الامور الرياضية . وعلى الناقد ان يكون رشيق العاطفة ، رقيق الاحساس . ومقياسهُ هو الطبيعة بأسرها ، بإنسانها وجمادها ثم عليه أن يتأثر لينتقد بإحساس ، لانَّ كونك ناقداً لا ينفي كونك إنساناً والانفعالُ يقرّب بين الامزجة المتشابهة ويسمو بالفوارق الى افق جديد »

وقال هنريك إبسنْ : « على الناقد في الحياة أن ينتقد الحياة بلغتها الشعرية الحالمة ، لا بكلام القاموس وأوضاعه المتهرّئة . . . وهكذا فيسقيها خمرةً عذبة لأبناء الليالي المستمدّين من المثل الاعلى أحلام قلوبهم وتصاوير أرواحهم »

وقال استيفان زفيكْ : « الناقد الجبّار هو مخلوقٌ غريب يبصر بعين عاطفته الخفية غير ما تبصرهُ أعينُ الناس . هو شاعر والّه معاً . ينظر الى الوادي العميق وما في عمقه من رهبة وخشوع ، ويشاهد الخريف وما في تحوله من حزن وكآبة ، ويرى الليل وما في ظلامه من أسرار . . فيكوّن من كلّ ذلك رسماً خالداً بألوانه ، فاتناً باشراقه »

***

فالانتقاد اذاً ليس معرفة مواضع الخطأ في ما تقرأهُ وأماكن التخالف في ما تراه ، بل هو العاطفة السموية الجبارة التي تتغلغل بها الى اعماق المعاني ، فتلمس نفسية الشاعر اذا كبا ، وتحس روح الكاتب اذا حلّق وأجاد . ولولا ذلك لكان كلُّ دعيٍ مأفون عليماً بأسرار النقد فيعيب على العبقريين رسومهم وتعابيرهم ، وعلى الملهمين تفننهم وإبداعهم

إنَّ الانتقاد هو قوّة الهية غير ملموسة توشح اجنحة ابناء الفن المتعبدين للمثل الاعلى في هيكل الحياة . اما هؤلاء المنطرحون على الادب انطراحَ المرأة الدميمة الشوهاء على فراش الجمال ، فشأنهم في تفهم نبضات القلوب وهمسات الارواح كشأن الوادي يسمع عويل العاصفة فلا يفقه معناه ، ولا يتدبر انينه وبلواه

لقد كان الانتقاد العاطفي مجهولاً من لغتنا العربية في زمن انحطاط الادب وتأخره حتى جاء المجددون فأشرعوا هذا الباب على مصراعيه وخيراً فعلوا . لان النقد المجرد من تعاليم المدرسة القديمة يعتقُ الفكر من قيود الالفاظ والاوزان ، بل يسكب في عروقه دم الحياة . والفكر السامي تذويه القواعد اللغوية وتميته الاحكام العروضية : فهو كالجمرة المتقدة اذا طمرت بالرماد انطفأت وتلاشت فلا تعود تشيع في النفس حرارة ، وفي الجنان ارتعاشاً وحبوراً

بيد ان المتمسكين بذيول القديم يأنفون من الاقرار بهذه الحقيقة وجمالها ، ويخيرون الموت على مماشاة الذوق العصري الذي يستضيئون شعه الوهاجة . فاذا كتبَ كاتبٌ حديث بغير

الطريقة التي كتب بها ابن المقفع كتابه كليلة ودمنة ، حسبوا اسلوبه مبتذلاً ، ولماذا ؟ لانه لا يتسق مع اساليب قدماء المنشئين كالحريري والثعالبي والزمخشري وغيرهم . وان هم ذهبوا في فهم الادب ذلك المذهب الماجن المرضوض ، فلان النقد عندهم لايخرج عن كونه معرفة باصول القاموس وعلوم اللغة . اما العاطفة ، نعم العاطفة الجنحة التي تغوص بك الى اعمق دركات الفكر والوجدان ، فلا شأن لها في مقاييسهم ولا مزية

ولكن ليت شعري هل من اتخذ محور القاعدة اللفظية قانوناً له يقوى على اختراق معالم الشعور والوجدان ؟ والشعور لا حدود له ولا روابط . فالصور والتشابيه التي يرسمها الكاتب او الشاعر عن القمر وهو يغرس اشعته الذهبية في تربة الروض الساجي الجيل ، والصحراء المتظللة بقبة صافية الاديم قلما تتلبد بالغيوم او تدوي بالرعود ، والرسم المتسارعة بين خطوطه اشباح الحياة واحلام الموت ، والغراب الاسحم الكالح الوجه ينعب في ليلة حالكة الجلباب متذراً بانقضاء اوقات اللذة والغرام ، وانتعاش الطيور تستيقظ متناغمة فرحة عند مجيء الصباح . نعم ان كل هذه الصور والتعابير ما يفهمها ويتبصرها الا الناقد الجبار الذي يضم بين ضلوعه عاطفة شجية حنونة تتحرك لأخف النسمات هبوباً ، وألطف الخطرات والتراكيب دقة وعذوبة !.!

***

إنَّ أفقَ الانتقادِ العاطفي هو أفسح آفاق الانشاء في دولة الادب ، يستطيع أن يحوّم فيه كلُّ من أحبّ ومن أراد . ولكن ليس كلُّ كاتبٍ يجيدُ النقد عندما ينتقد اذا كان محروماً من ذلك السائل العجيب الذي يدعونهُ شعوراً ورقةً وإحساساً

كلما نسمع حشرجة الجداول وحفيف الاوراق في هدأة الليل ، نعلم ان الجداول تعضُّها الصخور والمنحدرات فتحدث شكوى ونحيباً ، وان الاغصان عندما يلامسها نسيم الاودية تحرّك مصفقة متمايلة . . . ولكن الذي يحتوي بين طيّات صدره عاطفة صاحية شفافة يفسّر حشرجة الجداول بتألم محتضر يلفظ انفاسه الاخيرة ، ويعلّل حفيف الاوراق بنبضات فؤادٍ تتنازعهُ الميول والحنين والتذكارات

والاديب كالجدول او كالغصن ، تتألم روحهُ ونوازعه خافقةً في مسامع الحياة التي لا ترحم ولا تلين ، فاذا جاء من يقيس هذه النفثات بالارقام الحسابية والموازين النحوية ، يخطيء الى الفنّ والابداع . وذلك لان الفكر غير محسوس وغير منظور ؛ وحتى يفهمه الناقد يجب ان يستعمل مقياس عواطفه ومشاعره وإحساساته

وعلى الناقد أن يكون علياً بكلّ امور الفنّ الذي ينقدهُ اذا أحبّ ان يكون مصيباً في

انتقاده . وأنا لا أقصد من هذا ان على ناقد الشعر ان يكون وزاناً خبيراً ، او على ناقد الرواية ان يكون روائياً مجيداً ، لا ما هذا الذي أقصده ، بل عليه ان يدرك العيب في ما يقرأه بعيني وجهه كلمات مكتوبة وبعيني عاطفته الخفية آيات مرسومة بالدم والدموع

ومع كل الشروط الواجبة على الناقد ان يكون ناقداً منظوراً اليه ، أجد ان العاطفة هي المحور الاول في فن النقد . ولا شأن هنا للنقد اللغوي المبني على الارقام والقراريط

فان كثيرين من حملة الاقلام — وخصوصاً في العالم العربي — يتناولون قصيدة الشاعر او مقالة الكاتب ، ولا يقصدون من نقدهم الا ان يروا مواضع الخطأ النحوي في هذه الجملة او في ذلك البيت كأن النقد الرفيع غايته القشور لا اللباب ، وهكذا يجرمون الى الفن والى الكاتب والشاعر المتقدمين بظلم واعتداء ، متناسين ان أقدس عمل في قانون الناقد ان يتفحص المعاني قبل كل شيء ، لا أن — يكبس يديه ورجليه — على الالفاظ ليستخرج منها عصيراً ونوراً وحياة

***

فالانتقاد الادبي اذاً عاطفة لا قاعدة لغوية كما يزعم الغافلون . ولولا ان جبابرة التاريخ كشكسبير وهيغو وبيرون وجبران مثلاً يؤثرون القواعد اللغوية على العواطف الذاتية لما استطاع العالم الفكري أن يحفل بتلك الروائع التي يبلى الدهر ولا تبلى جدتها

إن المنتقد الذي يعيب على الكاتب والشاعر هفواته القاموسية ، يبرهن على ضعف ملكة النقد فيه وعلى جفاف ثروته الادبية ، والادب الخلاق المستجد لا يبلغ القمة ما لم يستتر هذا الفن . فالشاعر اللبناني الخالد جبران خليل جبران — وهو رب المجددين في الادب العربي واكبر من تعبد للسحر والجمال — لو لم يستوعب خلجات فؤاده ويرسمها على جدار الحياة رائعة فتانة ، ما عانقت العربية تلك التماثيل الحية في الاجنحة المتكسرة وغيرها !

***

وغاية النقد العالي الصريح هي تلمس الحياة في جميع حالاتها . فجبران ذاته هو امير الناقدين وانت عندما تصغي الى رنات روحه تطل عليك من كوى الغيب كواعب سحرية مجهولة يشجوك منها بريق عيونها وهفهفة اردانها . . . وذلك لان جبران — ذلك الناقد الجبار — عرف ان ينتقد الحياة ويستقطر الانغام من دموع ليلها ، وندى صباحها

اما هؤلاء الذين ينتقدون وعمودهم القواعد النحوية وحسب ، فليسوا من ابناء الفن وان أصروا على ان يكونوا منه . . . فالانتقاد اللغوي المقصوص ريشه في عبرة الحقيقة له عاطفته المجنحة ، ولغته المختلفة كثيراً عن لغات ضفادع المستنقعات وأنصاب المقابر ! !